المدنية العربية

في صقلية

سنة ٢١٣ هـ الى سنة ٤٨٤ هـ

وصف الدكتور المنصف الاستاذ لويجي ريناللدي الايطالي في خطبته التي نشرها المقتطف في العام الماضي آثار المدنية العربية في الغرب فأحببت ان احدث قراء المقتطف من ابناء الشرق الكرام عن آثار آبائهم الامجاد في جزيرة صقلية التي لم ينزلوها الا نحو قرنين ونصف قرن من الزمن واقدم لهم صورة من تلك الحضارة الناهضة التي تركت هذه الآثار الجليلة التي حدث عنها الدكتور المحقق بلا تحيز

فتح صقلية

بدأ تأثير الاسلام في صقلية منذ الصدر الاول قبل فتحها فقد كانت قليلة العمارة خاملة قبل الاسلام فلما فتح القوم افريقية هرب اهلها الى صقلية واقاموا فيها يعمرونها فاحسنوا ذلك

ثم كانت للمسلمين غزوات اليها في عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان وكذلك بعده فلم يتم فتحها حتى ايام بني الاغلب اوائل القرن الثالث الهجري فجردوا عليها اسطولاً ولوا قيادته « الاميرال » الفقيه الشيخ اسد بن الفرات القاضي فلما خرج على رأس الجيش متوجهاً الى سوسه[1] ليركب منها الى صقلية خرج معه وجوه اهل العلم والجماعة من الناس يشيعونه فلما رأى تلك الجموع بين يديه وخلفه وعن يمينه وعن شماله وقد سهلت الخيول وضربت الطبول ونشرت البنود قال « لا اله الا الله وحده لا شريك له ثم قال يا معشر المسلمين .. ولي لي اب ولا » « جد ولاية قط ولا رأى احد من يلقى مثل هذا قط وما رأيت ما ترون الا » « بالاقلام فاجهدوا انفسكم واتعبوا ابدانكم في طلب العلم وتدوينه وكاثروا عليه »

(١) فرضة بحرية بالقرب منها اقلع الاسطول الذي فتح صقلية

« واصبروا على شدته فانكم تنالون به الدنيا والآخرة » وانطلق هذا البحّار الباسل الفقيه ومعهُ جنودهُ الذين كانوا كما وصف ابن حديس بعد ذلك في قولهِ :

ومدرسة ابناؤها فقهاؤها فمن عالم منهم ومن متعلم
ضراغم في الجيش اللهام وانما فوارسهم في الحرب من كل ضيغم

حتى فتحوا صقلية ونزلوها . فليت شيخنا — عافاهُ الله — يفهمون الحياة اليوم كذلك . ونتقدم الآن الى ذكر الحضارة بعد استقرار الدولة بها ونبدأ بذكر

الحضارة العلمية

﴿ اللغة والنحو ﴾ دخل العرب الجزيرة بلغتهم ودينهم . فكان نصيب اللغة جزيلاً وافراً فسرعان ما صقلت الاسماء الافرنجية وسمع في الجزيرة « قطانية » و« قصريانة » « ووادي عباس » و« بلرم » الخ . وما كان يرجى من اهل هذا البلد النائي اكثر من ان تكون العربية لغة كتابة وتدوين على قدر المكنة والضرورة . ولكن ابت هذه الهمم الوثابة والنفوس الطامحة الاّ ان تعمل حيث كانت فرحل الراحلون في طلب اللغة ومفرداتها وغريبها وظهر الحفاظ واللغويون الكبار بصقلية كابن عبد البر اللغوي الصقلي الذي رحل في طلب العلم ثم عاد الى صقلية فاقرأ بها ونبغ من تلامذتهِ اللغوي الشهير ابو القاسم علي بن جعفر بن علي السعدي احد بني سعد بن زيد مناة بن تميم المعروف بابن القطاع — ولد سنة ٤٣٣ هـ وتوفي سنة ٥١٥ هـ . كان احد ائمة الادب وخاصة اللغة واجاد النحو غاية الاجادة وقال الشعر وسنهُ ثلاث عشرة سنة ورحل عن صقلية لما اشرف الفرنج على تملكها ووصل الى مصر فبالغ اهلها في اكرامهِ وظل بها حتى توفي وله تصانيف قيمة منها كتاب « الافعال » وكتاب « ابنية الاسماء » الذي جمع فيهِ فاوعب ودل على سعة اطلاعهِ . وكتاب « الدرة الخطيرة في المختار من شعراء الجزيرة » — جزيرة صقلية — وكتاب لمح الملح ترجم فيهِ خلقاً كثيراً من شعراء الاندلس

ومن اللغويين الصقليين ابو محمد عبدالله بن بري تلميذ ابن القطاع المذكور . وقد بدأ استاذهُ كتاب الحواشي على الصحاح للجوهري فبنى ابن بري على ما كتب ابن القطاع وسمى الكتاب « التنبيه والايضاح عما وقع من الوهم في كتاب الصحاح »

وغير هؤلاء كثيرون يطول القول في ذكرهم وبيان آثارهم . وحسبك ان كان لهم ذلك الحفظ والتدوين وانهم اصلحوا كتب المشارقة وهم اهل اللغة الادنون. وتبع جمعهم للغة الاشتغال بعلم النحو فكان منهم نحاة مصنفون كابن عتيق الصقلي الذي شرح مقدمة ابن بابشاذ في النحو . والشيخ عمر بن علي بن عمر السرقوسي الصقلي النحوي الشاعر اللغوي المقرىء الذي لهُ تآليف في القراءات والنحو والعروض وقد رحل الى مصر وكان لهُ في جامعها حلقة للاقراء ولقيهُ الحافظ السلفي الشهير بمصر . والشيخ محمد بن ابي الفرج ابي عبد الله المالكي الكتاني المعروف بالذكي النحوي . خرج من صقلية وهو امام في الفقه والنحو فكانت لهُ رحلة الى بغداد وخراسان وغزنة وقد جال في تلك البلاد حتى وصل الى الهند وكان يتتبع في رحلتهِ هذه عثرات الشيوخ ممن لقيهم ويأخذ عليهم غلطاتهم . ولقي في رحلته هذه السمعاني الشهير ومات باصبهان سنة ٥١٢ هـ ولا حاجة بنا الى الافاضة في ذكر نحاتهم فذلك كثير يفوق أقله عقود السنين التي استقر للمسلمين فيها ملك بصقلية

﴿ الشعر ﴾ وان قوماً كانت تلك عنايتهم باللغة والنحو وموطنهم صقلية التي بحرها شعر وارضها شعر ورياضها شعر وسماؤها شعر لا غرو ان يكون منهم الشعراء المجيدون وقد انجبت صقلية في ذلك الزمن القصير من الشعراء عدداً وافراً عرف منهم نيف ومائة وسبعون شاعراً. وان بلداً امرأؤهُ ادباء وحكامهُ علماء لا يستغرب ان يكون شعبهُ كذلك . وقد كانت كذلك صقلية اذ وليها عدة من الامراء الكلبيين يحسبون في الادباء المعدودين ولهم من الشعر المأثور ومنهم ابو الحسين احمد بن الحسين الكلبي وابو القاسم عبدالله بن سليمان الكلبي ومن شعره قوله :

كفى حزناً على البلوى مقامي ... اخص عداك دونك بالسلام
فقد بالنوم اذ سمحوك مني ... لعلي ان ازورك في المنام
رجوت بمقلتيك شفاء نفسي ... وهل يشفي السقام من السقام
وما ابقى الحمام عليّ عطفا ... ولكني خفيت عن الحمام

ومن امرائها الادباء مجير بن ابراهيم بن سفيان وكان من أهل الشرف والثروة وكان ينادم ابراهيم بن احمد الاغلبي لحذقهِ الغناء ثم اخرجهُ وولاهُ العسكر الذي

بمسيني وارض قلّوريّة[1] تخرج في شيني « ضرب من سفن الاسطول » يريد ولورية فسرنهُ الروم وحمل الى القسطنطينية فمات بها وقد بعث من شعره بقصيدة تتاقلها الناس وعلّمها

الا ليت شعري ما الذي فعل الدهرُ بخوانا يا قيروان ويا قصرُ

ومن امرائها الادباء الامير الفقيه الشاعر ابو محمد عمار بن المنصور الكلبي وكان فقيهاً محدثاً شاعراً اميراً ومن شعره

تقول لقد رأيت رجال نجد وما بصرت مثلك من يماني
الفت وقائع الغمرات حتى كانك من رداها في امان
ألى كم ذا الهجوم على المنايا وكم هذا التعرّض للطعان
فقلت لها سمعت بكل شيء ولم اسمع بكلبيّ جبان

ومن ادباء الامراء ابو العباس احمد بن ابراهيم بن الاغلب ولي ابوهُ صقلية سنة ٢٢١ هـ وظل والياً حتى مات سنة ٢٣٦ هـ

وكان احمد ابنهُ هذا عالماً باللغة والغريب مع تصرف في كثير من العلم والادب ومهارة في النجامة ويقال انهُ كان يحفظ كتب الاغاني للموصلي

وان ادب الامراء لا يضيف الى زمرة المتأدبين رجالاً يكثر بهم عديدهم فحسب بل يخلق رجالاً ويحيي همماً وانماس على دين ملوكهم . دع عنك ان الامير الاديب يكون نقاداً خبيراً يهابه شعراء عصره ويكون اثرهُ فيهم كما قال ابن حمديس الصقلي

يا من قوافينا عفافة نقدهِ خلصت من التنقيح والتهذيب

وقد بث ادب الامراء روحاً في الجزيرة فوفد اليها علماء اللغة والادب من المشرق والاندلس ونبغ فيها شعراء مجيدون سباقون من عيونهم القاضي ابو محمد عبد الجبار بن ابي بكر بن محمد بن حمديس الازدي الصقلي السرقوسي الشاعر الذي ولد بسرقوسة سنة ٤٤٥ هـ وتوفي غريباً عن وطنهِ سنة ٥٢٧ هـ في جزيرة «ميورقة» وقيل في بجاية بالاندلس . ولا يتسع القول للخوض في شعره ولكنا نسوق بعض قولهِ في الوصف مما لهُ صلة بما تحدث عنهُ من امر المدنية . قال يمدح

(١) جنوب بلاد ايطاليا

ابو الحسن علي بن يحيى ومنهُ يصف اساطيلهُ

ترى بنفط كيف يبقى لفحهُ والشم منهُ محرّق الاكباد
وكانما فيها دخان صواعق ملئت من الابراق والارعاد

ومن قولهِ يمدحهُ ويصف اساطيلهُ ايضاً

رأوا حربيـة ترمي بنفط لاخماد النفوس لهُ استمارُ
كأن اللهل في الانبوب منهُ ألى شيّ الوجوه لهُ ابتدار
اذا ما شك نحر الملج منـهُ تعالى بالحـام لهُ خوار
كأن متانس «البركان» فيها لاهوال الجحيم بها اعتبار
نحاس ينبري منهُ شواظ لارواح العلوج بهِ بوار
وما للماء بالاطفاء حكم عليهِ لدى الوقود ولا اقتدار

وليس الذي تسمع وصفاً خيالياً شعرياً بل حقيقة تاريخية صحيحة مؤكدة فقد كانت لهم نار بحرية لا تنطفىء بالماء وثياب لا تحترق بالنار وقد ذكر المؤرخون ذلك ووصفوا طريق عملهِ[1] وقال يحث قومهُ على جهاد الروم :

بني الشعر لستم في الوغى من بني ابي اذا لم تصلوا بالعرب منكم على العجم
دعوا النوم اني خائف ان تدوسكم دواهٍ وانتم في الاماني مع الحلم
وردّوا وجوه الخيل نحو كريهة مصرحـة في الروم بالشكل واليتم

الى ان يقول :

ولله ارض ان عدمتم هواءها فاهواكم في الارض منثورة النظام
وعزكم يفضي الى الذل والنوى من البين مرمي الشمل منكم بما ترمي
وان بلاد الناس ليست بلادكم ولا جارها والحكم كالجار والحكم

وللرجل شيء كثير من وصف القصور والرياض ومجالس الغناء والمغنيات والراقصات ووصف الطبيعيات والظواهر السماوية وما الى ذلك مع سهولة وسلاسة ودقة ورشاقة . وقد طبع ديوانهُ في رومية سنة ١٨٩٧ م باشراف السنيور « جلستينو سكياپارلي » ولا اعرف انهُ طبع في مصر حتى اليوم

ومنهم الشاعر الاديب ابو العرب مصعب بن محمد بن ابي الفرات القرشي ولد

(١) نرغب الى حضرة المؤرخ الفاضل ان يتحف المقتطف بما اشار اليه

بصقلية سنة ٤٣٣ هـ وخرج عنها لما تغلب الروم عليها الى الاندلس وكانت اذ ذاك مثابة الادباء والعلماء من الصقليين حين رأوا تزلزل عرشهم وقد بعث اليهِ المعتمد بن عباد خمسمائة دينار وامرهُ ان يتجهز بها ويتوجه اليهِ فسار اليهِ ومدحهُ واحسن المعتمد وفادتهُ ومات ابو العرب سنة ٥٠٦ هـ ودفن بجزيرة ميورقة (احدى جزائر البليار) وكتب الى المعتمد حين بعث اليهِ يستقدمهُ :

لا تعجبن لرأسي كيف شاب اسى واعجب لاسود عيني كيف لم يشب

البحر للروم لا يجري السفين بهِ الا على غرر والبر للعرب

فلعمري كيف حالُ اسود عينهِ اليوم وليس للعرب برٌّ ولا بحر . وحسبنا ما تقدم من امر الشعر والشعراء اذ لا قبل لنا بالاحصاء ولا ما يقاربهُ وناهيك ان ابن القطاع ترجم في كتابهِ « الدرة الخطيرة في المختار من شعراء الجزيرة » مائة وسبعين شاعراً وهذا هو المختار فقط . وفي كتاب المكتبة الصقلية التي جمعها ونشرها المستشرق ميخائيل امارى عدد وافر من هؤلاء الشعراء

﴿ الغناء ﴾ وعلى ذكر الشعر نقول انهُ كان للغناء شأنه بصقلية حتى ان احد ملوك الاندلس استقدم من الجزيرة مغنياً صقليًّا افتتن بهِ وهذا على تقدم ذلك الفن في الاندلس وتبسطهم فيهِ يشهد بكبير تقدمهِ في صقلية الصغيرة

وقد ظلت حال اللغة في صقلية على ما ذكرنا من المتعة والبسطة الى ما بعد سقوط الدولة الاسلامية عهداً طويلاً فقد زارها ابن جبير السائح في اواخر القرن السادس الهجري أي بعد سقوطها بنحو القرن من الزمان وذكر ان ملكها « غليام بن رجر » وعماله من النصارى يقرءون العربية ويكتبونها وكانت علامتهُ « الحمد لله حق حمده » وكانت علامة ابيهِ قبلهُ « الحمد لله شكراً لانعمه » وفي لسان اهل الجزيرة وما حولها كالطة وغيرها آثار من العربية شهد بها الدكتور لوبجي ريناللدي وذكر شيئاً منها في خطبته

العلوم الدينية

اما العلوم الدينية فقد كان لها في صقلية نصيب وافر من العناية والخدمة فقد عني الصقليون بكتاب الله حفظاً وقراءة وتفسيراً وكانت لهم في الحديث آثار جميلة والف كثيرون منهم في القراءات ورحلوا الى البلاد المجاورة كمصر والاندلس لما

انتشر عقد الجزيرة فكانوا فيها موضع الاكبار والاجلال . ومن هؤلاء ابن الفحام الصقلي الذي رحل الى المشرق وانتهت اليهِ رآسة الاقراء بالاسكندرية علوًّا ومعرفة وقال عنهُ أحد علماء الاندلس « ما رأيتُ احداً اعلم بالقراءات منهُ لا بالشرق ولا بالمغرب »

وكان للتفسير حظهُ من عنايتهم فاشتغلوا بهِ وألفوا فيهِ ايضاً ولابن ظفر « الآتي ذكرهُ » كتاب في التفسير اسمهُ «ينبوع الحياة» وهو كتاب كبير في مجلدين منهُ نسخة في باريس وأخرى في مكتبة مصر

وللشيخ ابي طاهر اسماعيل بن خلف الصقلي النحوي كتاب اعراب القرآن في تسع مجلدات

وكذلك كان شأن الحديث النبوي فيهم فكان منهم المحدثون الحفاظ والشراح الاجلاء ولا نعجب اذا نبغ في ايطاليا محدث هو الشيخ ابو العباس القلّوري وهو محدث جليل القدر روى عنهُ أبو داود في سننهِ

وكذلك حدث عن اشتغالهم بالفقه والشريعة فقد شاع هناك المذهب المالكي لقربها من المغرب وتبع فيها فقهاً من وجوه المالكية وكفى صقلية فخراً عليها ان تنجب الفقيه المحدث أبا عبد الله محمد بن علي التميمي المازري (نسبة الى مازر احدى مدن صقلية) وبها ولد . فقد كان المازري هذا آخر المشتغلين بافريقية بتحقيق العلم ورتبة الاجتهاد ودقة النظر وتوفي بالمهدية سنة ٥٣٦ هـ ومن العجب انهُ كان يفزع اليهِ في الفتيا في الطب كما يفزع اليهِ في الفتيا في الفقه ومع انهُ احد الاعلام المشار اليهم في حفظ الحديث والكلام عليهِ . وقد شرح صحيح مسلم شرحاً جيداً سماهُ كتاب « المعلم » بفوائد كتاب مسلم وعليهِ بنى القاضي عياض كتابهِ « الاكمال » وجعلهُ تكملة لهُ . وله كتاب اسمهُ ايضاح المحصول في برهان الاصول وما هو الاَّ واحد من فقهاء مؤلفين لا يد لنا بسردهم بله استقصائهم . هذه مشاركة صقلية في علوم اللغة والدين ومؤلفات القوم فيها ذكر بعضها على سبيل المثال وما هي الاَّ بعض من كلٍّ يحدّث عن حضارة علمية زاهرة

وفيما يلي من البحث ذكر العلوم الدنيوية والحضارة العملية من صناعة وتجارة وزراعة وما الى ذلك

امين الخولي